

حول التحرّر من المستعمر

المحاضرة الموريتانية ومواجهة المستعمر

بقلم: المصطفى حمادي

طالب باحث بسلك الدكتوراه - كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية سلا
جامعة محمد الخامس بالرباط - المغرب

أزمة الازدواجية في العمل الدبلوماسي الفلسطيني (1994 - 2010م)

"تقرير جولدستون أنموذجا"

بقلم: زيد محمد حسن أبو شمعة

طالب باحث في سلك الدكتوراه - شعبة علوم التواصل وتقنياته
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة محمد الخامس بالرباط - المغرب



المحاضرة الموريتانية ومواجهة المستعمر

المصطفى حمادي

طالب باحث بسلك الدكتوراه، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية سلا، جامعة محمد الخامس بالرباط

elmoustapha_hamady@um5.ac.ma

استخلاص استطاعت /محاضر في موريتانيا - وهي بمثابة جامعات شعبية بدوية متنقلة في كثير من الأحيان، تلقينية فردية التعليم، وطوعية الممارسة- أن تظل قلاعاً معرفية صامدة وحصوناً ثقافية منيعة عصية على الاختراق، ولم يستطع المدّ الثقافي والعسكري الفرنسي رغم المكائد والمؤامرات ووسائل الترغيب والترهيب التي استعملها أن يقوض أسسها أو يضعفها؛ فتمكنت من الصمود في وجه الغزو الثقافي الأجنبي واضطلعت برسالتها المتمثلة في صيانة تراث ثقافي يمثل بالنسبة لها مدعاة فخر واعتزاز.. وقد حاول المستعمر الفرنسي اللعب على وتر الإثنية وأن ينشئ مدراس نظامية موازية كقنوات لغرس ثقافته وتوصيلها ورغب ورهب، وأخضع شيوخ /محاضر للمراقبة وقام بوضع القيود على تحركاتهم، بل ووصل به الأمر في بعض الأحيان أن اجتاح /محاضرة وغزاها إلا أن ذلك لم يزد /محاضر إلا تمسكا بموروثها الثقافي واعتزازا به ومرابطة على ثغوره: بل قابلت ذلك بازدراء الثقافة الفرنسية والتهرب من المدراس النظامية: كما استصدرت الفتاوى واستنشدت الأشعار وعلقت الشعارات السياسية قصائد بدون توقيع، وحُمل السلاح حتى زالت أخطار التهديد بإعلان الاستقلال.

*

The Mauritanian *Mahdarah* and Confronting the Colonizer

El Moustapha Hamady

PhD Research Student, Faculty of Law, Economic and Social Sciences, Salé, Mohammed V University, Rabat

elmoustapha_hamady@um5.ac.ma

Abstract The Mauritanian *mahdarah* - which is a popular, nomadic, mobile, didactic, individualized, voluntary practice university- was able to remain steadfast cognitive bastions and cultural fortresses that were impregnable and impregnable. The French cultural and military expansion, despite the intrigues, conspiracies and means of intimidation and intimidation used by them, could not weaken or weaken their arm; And it was able to withstand the foreign cultural invasion and carried out its mission of preserving a cultural heritage that represents for it a cause of pride and pride. The French colonialist tried to play on the ethnicity and to establish parallel regular schools as channels for implanting and communicating his culture, desiring and frightening. By placing restrictions on their movements, and in some cases it was connected to him that he invaded and conquered the *mahdarahs*. However, this only increased the *mahdarah*'s attachment to her cultural heritage, its pride in it, and its attachment to its loopholes: rather, *mahdarah* met that with contempt for French culture and evading regular schools: rather the *fatwas* were invoked and poems were commented on. Political slogans are poems without a signature, and weapons were carried until the dangers of the threat to declare independence on November 1960 disappeared.

□

تقديم تعتبر /محاضرة أو /محاضرة في بلاد شنقيط من أهم حصون ومعقل المعرفة والعلم الحاضنة للثقافة والعلوم الإسلامية والمرابطة على ثغورها منذ عهد المرابطين وإلى اليوم. وإذا أردنا أن نعطي تعريفاً يوضح الملامح أو السمات المكونة للمحاضرة فيمكن أن نعرفها مع الشيخ الجليل النحوي¹ بأنها بمثابة "جامعة شعبية، بدوية²، متنقلة، تلقينية، فردية التعليم، طوعية

¹ الشيخ الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة.. والرباط. عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة /محاضر (تونس 1987 المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) ص 53.

الممارسة". لا يرتبط تشييد صرحها المعرفي بشروط معينة متواضع عليها، فلا تنشأ بموجب مرسوم ولا تحتاج إلى نظام داخلي يحدد العلاقات داخلها، إنما هي بمثابة "تواضع مجتمعي أو تزكية اجتماعية لشيخ معين يُقبل الناس عليه أفواجا". وعندما تلتئم حوله حلقة: تسمى حينئذ محاضرة.³

و المحاضرة: أصلها مفعلة⁴ من مكان الحضور، وهذا الاسم والاستعمال كان معروفا عند العرب قديما، يقول لبيد ابن ربيعة:

أقوى وأقفرَ واسطَ فيرَامُ - من أهله فصواعقُ فخرَامُ

فالواديانِ وكل مغنى منهم - على المياه محاضِرٌ وخيامُ

وإذا قلنا أن المحاضرة تنطق بالظاء، فهي تكون مأخوذة من الحظائر، فبعض الطلبة- من من لا سكن لهم- يتخذون حظائر من الشجر يسكنون فيها ويحفظون فيها كتبهم وأمتعتهم.⁵ أو هي تكون كما يقول أحمد ابن حميد مأخوذة من الحظيرة "وهو ما يحرز به على المال".⁶

ويرتبط بـ المحاضرة عدد من المصطلحات: منها/المُرابط وهو شيخ المحاضرة والعالم عموما: الطلبة وهو علمٌ على بيوتات العلم والتصوف الكبيرة: المؤبد وهو التلميذ أو الطالب الذي يدرس في المحاضرة ولا زاد له: الدولة وهو يدل على طالبين فأكثر يشتركان في دراسة متن واحد في الحاضرة.

وتمتد الحرية في تشييد المحاضرة - إن صح هذا التعبير - لتشمل كذلك الانضمام إلى المحاضرة، فهي تسمح لكل الفئات العمرية أن يلتحقوا بها، كما أنها كذلك تجمع كل طلبة العلم وأصحاب الدراسات على اختلاف مستوياتهم العلمية في مكان واحد: فتجد هذا يدرس في مستوى عال متخصص جدا، وهذا لا يزال يتلمس بدايات طريقه العلمي. ينضاف إلى هذه المزايا أو المميزات السابقة كذلك موسوعية المعارف التي تدرسها المحاضرة، فهي جامعة إسلامية: تدرس القرآن الكريم حفظه ورسمه وتفسيره وبقية علومه، كما تدرس الحديث متنه ومصطلحه ورجاله، والفقه أصوله وقواعده وفروعه، والعقيدة وعلم الكلام والتصوف، والسير والتاريخ والأنساب، والأخلاق وآداب السلوك: كما تدرس أيضا اللغة والأدب والنحو والصرف والبلاغة والمنطق وأسرار الحروف، هذا بالإضافة إلى الحساب والهندسة والجغرافيا والفلك والطب⁷... الخ. فتتلاقح كل هذه العلوم وتتلاقح وتدرس في محاضرة واحدة، وفي جلسة واحدة.

ولا شك وهذه حالة المحاضرة ومكانتها داخل المجتمع: من أن يأخذ المستعمر الفرنسي حذره منها عندما وطئت أقدامه أديم صحراء شنقيط، ذلك أنه بالإضافة إلى سعيه إلى نهب خيرات البلاد وثرواتها، يسعى كذلك إلى نشر ثقافته وحضارته. ولعله قد انبهر بالفعل بهذا الحصن المنيع العصي على الاختراق، يقول الحاكم الفرنسي لموريتانيا لغريه C. Laigret⁸: لقد انتصب أمامنا عدو قديم وقوي هو: تعليم المحاضر.

² لا يقصد بصفة الببلوية هنا أن المحاضر الموريتانية لا توجد إلا في البادية، بل إنها ارتبطت في بداية نشأتها بمدن معروفة وأهلها مستقرون: مثل محاضرة شنقيط و محاضرة ولاته التي زارها السيوطي و محاضرة تنيكي و محاضرة المجلس و محاضرة تيشيت: فهذه المحاضر كلها ارتبطت بمدن وحوضر أهلها مستقرون، ثم انتقلت بعد ذلك إلى البادية وفيها ازدهرت وانتشرت وتبلورت شخصيتها.. انظر فيما هذا المعنى: العلامة محمد الحسن الددو: صناعة الفقيه في المحاضرة الموريتانية، برنامج فقه العصر، الرابط على الشابكة <www.youtube.com>، تاريخ الزيارة 2018/04/02. انظر كذلك: الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة والرباط، م.س.ص.55.

³ الخليل النحوي: برنامج المشاء - موريتانيا شجرة المحاضرة: الرابط على الشابكة: www.youtube.com، تاريخ الزيارة 2018/04/02.

⁴ العلامة محمد سالم ابن عبد الودود: "المحاضر الموريتانية قلاع العلم والتعلم"، قناة الموريتانية، الشابكة www.youtube.com، تاريخ الزيارة 2018/04/02.

⁵ العلامة محمد الحسن الددو: صناعة الفقيه في المحاضرة الموريتانية، م.س.

⁶ الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة.. والرباط، م.س.ص.61.

⁷ العلامة عبد الله بن بيه: ماذا يميز المحاضرة الموريتانية؟ الرابط على الشابكة: www.youtube.com، تاريخ الزيارة 2018/04/02.

⁸ الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة.. والرباط، م.س.ص.355.

إن صلات الموريتانيين بالفرنسيين⁹ في حقيقة الأمر قد سبقت حقبة الاستعمار ، فقد بدأت منذ أن أخذ البرتغاليون يقيمون المراكز التجارية على الساحل الأطلسي، وذلك في القرن الخامس عشر الميلادي، فقد قامت لهم سوق كبيرة في جزيرة/ركين، كما أقاموا مراكز تجارية في وادن. وفي القرن السابع الميلادي، تناوب البرتغاليون والهولنديون والفرنسيون والبريطانيون النفوذ والاستيلاء حربيا أو بالمعاهدات على موانئ متعددة من الساحل الموريتاني، وفي الفترة 1783-1814 تم الاتفاق أولا بين بريطانيا وفرنسا، ثم في معاهدة ثانية أطلق عليها *معاهدة باريس* ضمت أطرافا أوروبية أخرى، على أن تكون الصحراء الموريتانية منطقة نفوذ فرنسي مطلق. وكانت فرنسا قد عقدت العزم على إخضاع الإقليم الموريتاني لنفوذها، قصد ربط مستعمراتها في المغرب العربي بتلك الموجودة في إفريقيا الغربية الزنجية، فقامت بالتوقيع في باريس 29 كانون الثاني/يناير 1900 على معاهد مع إسبانيا تم بمقتضاها إنشاء موريتانيا بحدودها الترابية الراهنة.

وستعمل هذه الورقة سوف تسليط الضوء على المقاومة الثقافية والسياسية التي جابهت بها/المحاضر المد الثقافي والعسكري الفرنسي؛ وتبين ما إذا كان المستعمر الفرنسي قد استطاع بخيله وركبه وغزوه الفكري أن يخترق/المحاضر الموريتانية ويفكك لحمتها المجتمعية بكل ما أتيح له من وسائل وأدوات من مدارس وأفواه بناثق؟ أم أن/المحاضر الموريتانية ردت بقوة ازدراء لثقافته وتهربا من مدارسه ومجاهمة له بالأشعار والفتاوى والجهاد المسلح؟ ونرى أن/المحاضرة الموريتانية لم تقتصر مقاومتها الثقافية للمستعمر على مجرد الرفض لذاته والمجاهمة لغزوه الفكري في صمت، إنما تجاوزت ذلك -اعتزازا بموروثها الثقافي وذوداً عن حياضه. إلى مجابهة الغزو الفكري والعسكري الفرنسي استصدارا للفتاوى واستنشاداً للأشعار والمنشورات السياسية (قصائد بدون توقيع) كما ساهمت كذلك في الجهاد المسلح. وتستند مصادر/البيانات لهذه الدراسة بشكل أساسي على كتاب الشيخ الجليل العلامة الخليل النحوي نظرا لتخصصه في عرض موضوع الحياة العلمية (من خلال/المحاضر) وإحاطته بكل تفاصيله وجزيئاته، دون أن تغفل كذلك الرجوع إلى بعض المقابلات التي أجريت مع بعض أعلام/المحاضرة، بالإضافة بعض الدراسات التي تتحدث عن الموضوع بشكل عرضي.

[1] المستعمر الفرنسي والحرب على المحاضر

سيحاول الباحث أن يتحدث عن حرب المستعمر على المحاضر في نقطتين أساسيتين: يسלט الضوء في الأولى منهما على ما اتضح جليا من انهيار المستعمر بالمحاضرة وبالحصانة الثقافية *للسناقطة*، على أن يتطرق في النقطة الثانية إلى وسائله التي استعملها في حربه ضد المحاضر.

[1/1] انهيار المستعمر بالمحاضرة والحصانة الثقافية *للسناقطة*: يتضح من كتابات الفرنسيين وشهاداتهم حول/المحاضرة والثقافة الشنقيطية: أنهم تفاجأوا بالفعل من تماسك هذه الصرح العلمي، وتمسك أهله بتقاليدهم وموروثهم الحضاري، واعتزازهم بذلك. يقول أحد/غريه الإداريين الفرنسيين: "لقد وجدنا (في موريتانيا) شعبا له ماض من الأمجاد والفتوح لم يرغب بعد عن ذاكرته، ومؤسسات اجتماعية لا نستطيع أن نتجاهلها، إنها علاقات تضامن تسود بينهم رغم بداوتهم وتمزقهم"¹⁰. ثم يضيف معترفا بتطور الثقافة الشنقيطية وقوة نفوذ بعض *الشناقطة*¹¹:

ومن العجيب أننا وجدنا لدى الزوايا ثقافة رقيقة أكثر تطورا من الثقافة التي لاحظناها لدى مثقفي إفريقيا الشمالية [...] إن نفوذ بعضهم يمتد من غاميا الإنجليزية إلى مناطق المغرب الأقصى [...] إن أحياءهم حرم آمن لا يستباح، يلجأ إليه المغلوبون فيأمنون.

⁹ د. محمد الأمين ولد سيدي باب: *مظاهر المشاركة السياسية في موريتانيا* (بيروت 2015 مركز دراسات الوحدة العربية، ط1) ص24.

¹⁰ محمد أمين محمدمو: *المحاضر الموريتانية مؤسسات لنقل المعارف* (الجزائر: منشورات البحث في الإنترنت وولوجيا الاجتماعية والثقافية، 2016) ص55.

¹¹ الخليل النحوي: *بلاد شنقيط المنارة.. والرباط*، م.س.ص339.

وهذا الحاكم الفرنسي يقول موضحاً صعوبة اختراق المحاضر وصلابتها ورصانة النظام التعليمي الذي وجدوا أمامهم:¹² لقد عالجتنا مشكلة التعليم فور دخولنا إلى موريتانيا، ولكنها مسألة حادة، لقد وجدنا أنفسنا في مستعمرات أخرى في ساحة فارغة، أمام شعوب متلهفة إلى محاكاتها. أما في موريتانيا فإن المقاومة الإسلامية لنمو نفوذنا عن طريق التعليم الفرنسي بدت مقاومة صلبة [...] إن *البيضان* الذين أسلموا منذ قرون، وكان لهم وما زال فقهاؤهم وعلماءهم لا يمكن أن يروا حضارتنا بعين الإعجاب التي ينظر إليها السود ثم إن *موريتانيا* بلاد تمثل الثقافة فيها قمة المجد. وبها توجد مدارس ومكتبات تمثل شواهد حية كمكتبة *شنقيط*...¹³ [...] وهكذا انتصب أمامنا عدو قديم وقوي هو: تعليم المحاضر، وللتغلب على هذا المنافس القوي تعين انتهاز سياسة مدرسية حكيمة وتطلب الأمر جهداً كبيراً. ولكن تلك السياسية التي يتحدث عنها "الغريه" لم تفلح ولم تؤتي أكلها، فهذا أحد الفرنسيين الذين حكموا موريتانيا يقول: "إن المحاضر تمكنت على العموم من الصمود في وجه الغزو الثقافي الأجنبي واضطلعت برسالتها المتمثلة في صيانة تراث ثقافي يمثل بالنسبة لها مدعاة فخر واعتزاز".¹⁴

[2/1] وسائل المستعمر في الحرب على المحضرة: تنوعت الأساليب التي حاول المستعمر أن يبسط من خلالها سيطرته ونفوذه وثقافته على أديم صحراء *شنقيط*، مستخدماً شتى الطرق والوسائل التي من شأنها أن توصله إلى مقصوده. ولعل قضية التعليم والحصانة الثقافية التي بثتها المحاضر في صدور الرجال ورسختها في مسلكياتهم، كانت من أبرز العوائق الثقافية التي واجهت مهمته وجعلتها من الصعوبة بمكان. وسنحاول هنا أن نشير إلى بعض تلك الأساليب والطرق التي استعملها لتحقيق أغراضه.

[أ] المدرسة النظامية واللعب على وتر الإثنية: بما أن *المحضرة* في بلاد *شنقيط* هي مدرسة أو بالأحرى جامعة إسلامية حاضنة للثقافة وأهلها، فمن الطبيعي أن يسعى المستعمر إلى هدم حصونها واختراقها تمهيداً لطمسها والقضاء عليها كما كان يريد بالفعل. ولعل فكرة إنشاء مدارس جديدة تحل محلها شيئاً فشيئاً هي الخطة الأولى الذي ظن المستعمر نجاحها وكونها ستأتي أكلها بعد حين. ومن البدهي أن هذا التوجه من المستعمر كان سيلقى ممانعة ومجاهدة من *المحاضر* ومن كل من بنى فيه تعاليمها الروحية والروحانية. إلا أن المستعمر في توجهه هذا حاول أن يضرب عصفورين بحجر واحد كما يقال، فتسهيلاً لمهمته ووعياً منه بخطورة ما كان مقدماً عليه: قام بتقسيم البلاد ثقافياً على أساس من الخريطة الإثنية من أجل إحداث ثغرة في جدار المقاومة الثقافية والسياسية؛ وإنشاء آليات من شأنها المباعدة بين الموريتانيين العرب (*البيضان*) والموريتانيين السود، وذلك من يتضح من خلال الكتابات الفرنسية التي تميز بين الإسلام الأبيض والإسلام الأسود.¹⁵

وتبعاً لذلك استطاع المستعمر إقامة مدارس في المنطقة الجنوبية على غرار ما هو وجود في بقية دول إفريقيا الغربية ابتداء من سنة 1905، وكان جميع تلاميذها من السود، وتضم المدرسة ما بين 40 و45 تلميذاً، في حين لم تكن تضم سوى تلميذين من المجموعة العربية. أما في شمال البلاد فقد انتظر الفرنسيون أكثر من عشرين سنة استخدموا خلالها ذكاءكم ودماءهم ووسائلهم المادية والمعنوية: من أجل أن يتمكنوا من فتح مدرسة جديدة في تمبديغة 1933، وأخرى في *أطار* 1936، وثالثة في *كيفا*

¹² الخليل النحوي: *بلاد شنقيط المنارة.. والرباط*، م.س. صص 354-355.

¹³ وفي هذا السياق. سياق اعتناء *الشناقطة* بالعلم وارتباطهم به وبالمكتبات والتأليف على الرغم من عدم وجود أدوات طباعة في ذلك الوقت. فإن الأستاذ الراحل المختار ابن حامدون في كتابه *الحياة الثقافية في موريتانيا* ذكر أنه وقف على ما يزيد على ثلاثة آلاف مؤلف لما يزيد عن أربعمئة مؤلف، ولكن البعض منها قد ضاع للأسف. انظر المختار ابن حامدون: *حياة موريتانيا. الحياة الثقافية* (ب.م.: الدار العربية للكتاب، ب.ت.) ج 2، ص 90.

¹⁴ محمد أمين محمدمو، م.س. ص 56.

¹⁵ د. محمد سعيد بن أحمدو: *موريتانيا بين الانتماء العربي والتوجه الإفريقي "دراسة في إشكالية الهوية السياسية 1960-1993"* (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ب.ت.) ص 99.

1940. وكانت هذه المدارس تدرس باللغة العربية أما اللغة الفرنسية فقد كانت ساعات تدريسها قليلة ودراستها إجبارية على جميع الطلبة.¹⁶

إن لعب المستعمر الفرنسي على وتر الإثنية والعرقية يكشف عنه بوضوح ما ذكره المفتش الفرنسي الذي انتدب في مهمة تعبئة في الحوض سنة 1950، حينما عبر عن فكرته بأسلوب يستشف منه التهديد وضرورة الاستسلام للأمر الواقع، يقول المفتش مخاطباً السكان: "إذا لم تدخلوا المدارس فإن جميع الموظفين سيكونون من السود".¹⁷ لقد كان التعليم الفرنسي بكل وضوح كما حددته الإدارة الاستعمارية يهدف ببساطة إلى "تكوين الموظفين الضروريين للإدارة ونشر اللغة الفرنسية وزرع محبة فرنسا في قلوب الشعوب المستعمرة".¹⁸

إن المستعمر كان مدركاً أنه يجابه محاضر متجدرة في المجتمع عصبية على الاختراق، فكان تبعاً لذلك يترصد أية نقاط ضعف يمكن استغلالها لتحقيق أهدافه. وفي هذا السياق قد أصدر في 12 يونيو 1906 مرسوماً يقضى بصرف منحة تشجيعية شهرية قدرها 300 فرنك قديم (60 أوقية) لكل شيخ محاضرة أو كتاب يأمر طلابه بتخصيص ساعتين لتعلم اللغة الفرنسية. ومع أن ظروف المحاضر كانت صعبة جداً، إلا أن هذا المرسوم "ولد ميتاً" على حد تعبير الشيخ الخليل النحوي، فلم تتم الاستفادة من هذه المنحة.¹⁹

[ب] إخضاع المحاضر و مراقبها للمراقبة: من بين الأساليب التي استثمرها المستعمر الفرنسي كذلك في خدمة أهدافه الاستعمارية وتحقيق مآربه الثقافية: أسلوب مراقبة المحاضر ومشايخها: تخوفاً وتخوفاً من هذه الصرح العلمي، وترصداً لأي خطوة قد يقدم عليها لا ترضى المستعمر أو تزيد من صعوبة من مهمته وتزرع الشوك في طريقه الوعرة أصلاً. وهكذا قامت السلطات الاستعمارية بفرض رقابة مشددة على العلماء الشناقطة والمشايخ، وفتحت لكل منهم ملف استخبارات، وأخضعت جميع تحركاتهم لتسريجات خاصة، محدودة الأمد، لا تسلم إليهم إلا بعد التحري والتحقيق. وكانت الملفات الخاصة تتضمن بيانات مفصلة عن الشخصية: عدد طلبته ومريديه، وعلاقاته الخارجية، وصلته بالشيوخ الآخرين وممتلكاته وأسفاره والكتب التي بحوزته، وما إذا كان قد حجج بالسابق أم لا.²⁰ فهذا حاكم الفرنسي لغرب إفريقيا يكتب في سنة 1907 إلى مندوبه في بلاد البيضان يحضه على مراقبة المتصوفة ويأمره بجمع كل المعلومات عن "المدارس القرآنية التي تبث مذاهب دينية و مواقف سياسية"، وعن المشايخ الذين يتولون التدريس في هذه المحاضر: أصولهم وثقافتهم ووسائلهم ومواردهم ومدى نفوذهم، وعلاقتهم بمشايخهم، وعن الطلبة الذين يرتادون المحاضر.²¹

لقد كان جلياً عمق انزعاج المستعمر من هذه المحاضر وما تبثه في صدور الرجال من معارف ربانية وتعاليم إسلامية، وبالتالي فمن البدهي جداً أن يستمر في تنفيذ سياسته الاستعمارية ومراقبة المحاضر ومشايخها ومريديها. وقد ظل بالفعل متمسكاً بذلك، مطارداً المحاضر وهي تنتقل من منتجع إلى منتجع.

[ح] غزو المحاضرة: وقد تطور أمر المراقبة إلى أن بلغ حد الغزو والاجتياح في بعض الأحيان، كما حدث لمحاضرة الكحلأ²² التي رحلت من أمشتيل إلى منطقة الرقيبية، وكان يوم اجتياحها وانتهاك حرمةها يوماً أسود، ما إن دنست رحابها أقدامهم حتى نعاها أحد طلبتها بالشعر العامي قائلاً: الكحلأ كانت للحسين - وأولاد الناس المطبوعه

¹⁶ د. محمد سعيد بن أحمدو، م.س.ص. 100.

¹⁷ الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة.. والرباط، م.س.ص. 362.

¹⁸ الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة.. والرباط، م.س.ص. 346

¹⁹ الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة.. والرباط، م.س.ص. 345.

²⁰ الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة.. والرباط، م.س.ص. 342.

²¹ الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة.. والرباط، م.س.ص. 345.

²² الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة.. والرباط، م.س.ص. 345.

واليوم اَدْخَلَهَا "كابيتين -- وبرتزام وكلموعه

وبالفعل فقد كان دخول المستعمر إلى البلاد بداية النهاية لهذه/المحاضرة العريقة التي صارت اليوم "إحدى ذكريات الماضي المجيد".

[2] المحاضرة وسبل مواجهة المستعمر

لا شك أن المرابطة على ثغور الثقافة والتراث في فترات التحدي وإثبات الذات، تعتبر من أعظم أنواع المرابطة والمجاهدة لما لها من أهمية في حفظ وصيانة التراث بعد أن كان على وشك أن تندس حرمانه وتُداس مقدساته. وسنبرز هنا أهم الوسائل التي مكّنت المحاضرة الموريتانية من أن تظل صامدة في مواجهة المدّ الثقافي الاستعماري الفرنسي بأساليبه المختلفة والمتنوعة، وكيفية تعامل شيوخها وكل من بثت فيه تعاليمها مع الوافد الأجنبي.

[1/2] ازدياد الثقافة الفرنسية والتهرب من المدارس النظامية: لم ينظر المجتمع الشنقيطي المتشبع بالثقافة الإسلامية التي تبناها/المحاضر ليل نهار فيه، إلى الثقافة الفرنسية ومدارسها التي اتخذت كقناة لتوصيلها والتعبير عنها، نظرة متقبّل أو مصغ حتى.. يقول رئيس مصلحة التعليم الابتدائي في تقرير له سنة 1924: ²³

إن البيضان المسلمين منذ قرون كان لهم وما زال علماء وفقهاء وأدباء معروفون في جميع البلاد الناطقة بالعربية. ونتفهم كونهم ، لغيرتهم على ماضهم، لا ينظرون إلى حضارتنا بحماس [...] إن الثقة معدومة بيننا الآن.

إن سياسية الإزدراء للثقافة الفرنسية والاعتزاز بالموروث الحضاري الإسلامي، جعلت المجتمع الشنقيطي يتمسك بالمحاضر، ويقاطع المدارس النظامية ويتهرب منها، فكان ينظر إليها كأنها تجنيد إجباري وجباية ضرائب بالقوة. ²⁴ ويعرض لنا الشيخ الجليل في كتابه *المنارة والرباط*، لأمثلة من أنماط التهرب، تعكس عمق التشبث بالمحاضر ودرجة النفور من المدارس الفرنسية، ومن بين تلك الأمثلة: ²⁵

- أنهم كانوا ينكرون الولادات ويخفون الأبناء كما يفعل بنو إسرائيل في عهد في فرعون سنة مولد موسى عليه السلام، فقد كان أولئك يخافون عليهم الاعتقال، وهؤلاء يخافون عليهم الاستلاب والقتل الثقافي-الروحي.. ويذكر أحد التقارير الفرنسية أن حيا من أحياء تكانت مكونا من 606 نسمة مكث سبع سنوات لم يعلن فيها إلا سبع ولادات فقط.
- كان المستعمر الفرنسي كذلك يفرض على الأسر الوجية في القرية ضريبة ابن أو ابنتين يلتحقان بالمحاضرة، فكانت الأسر تتدافع مسؤولة تسديد هذه الغرامة البشرية، كل أسرة تريد أن تتخفف من العبء على حساب أختها، فإذا تعذر الاتفاق بالتراضي عمدوا أحيانا إلى القرعة. وقد يغالط الشيخ الإدارة الاستعمارية، فيبعث أطفالا من الفئات الدنيا فداء لأبناء الفئات العليا.
- بلغت بهم درجة التهرب من المدرسة حد أن صار الزوج يهدد زوجه الناشز بتسجيل أبنائه الذين بقوا معه في المدرسة.
- كان الآباء في حالات أخرى يشترطون من المعلم ساعات الدراسة ليقضها أبنائهم عند مدرس القرآن أو شيخ المحاضرة.
- ربما استخدم السكان الرشوة للإفلات من قبضة المدرسة النظامية، ففي سنة 1950 كتب شيخ حي بدوي يشكو معلم المدرسة الذي "يطلب من الوجهاء هدايا كبيرة ليترك لهم أبنائهم".
- يتحدث نقيب فرنسي عن مهمة اكتتاب مدرسي قام بها سنة 1950 فيذكر أن النساء كنّ يأتينه، يناشدنه، وهن يبكين، أن يترك لهنّ أبنائهن.

إن كل هذه الومضات والأمثلة السابقة توضح إلى حد كانت المدرسة الفرنسية منبوذة من طرف الكل ومكتوب عليها بالفشل، بالرغم من كل الأساليب والطرق التي استعملوها. فلم يكون التفاعل إيجابيا كما كان يخطط له المستعمر، يقول مفتش فرنسي

²³ الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة.. والرباط، م.س.ص 354،

²⁴ الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة.. والرباط، م.س.ص 363.

²⁵ الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة.. والرباط، م.س.صص 363.

في تعليق له على عدد طلبة المدارس النظامية في إقليم موريتانيا البالغ عددهم 438 موزعين على سبعة مدارس: "إنه أقل عدداً من تلامذة مدارس بوردو وحدها الواقعة على الضفة الأخرى من نهر السينغال".²⁶

[2/2] الفتاوى والأشعار والهجرة والجهاد: لا بد في بداية حديثنا هنا- وبالأخص قبل أن نبسط الحديث عن الفتاوى والجهاد المسلح- من أن نشر إلى امتحان عسير وقع فيه بعض العلماء عند ما دخل المستعمر إلى صحراء شنقيط.

لقد دخل المستعمر إلى البلاد هذه السائبة كما كانت تسمى، ولم يكن المجتمع حينئذ مجتمعاً متماسكاً ولا له إمام مطاع: فقد عاش الشناقطة ظروفاً قاسية بعد انفراط عقد دولة المرابطين فترك القوم أجزاها وإمارات وقبائل متناحرة يذيق بعضها بأس بعض، فانتشرت الغارات والمناوشات القبلية. في تلك الظروف الصعبة، والتفكك الداخلي والاحتلال والتحرش ببعض قبائل الزوايا الحاضرة للعلم والذائدة عن حياضه: دخل المستعمر الفرنسي إلى البلاد: وليس هناك من إمام مطاع ولا دولة جامعة، فهل سيختار الفقهاء والحال هذه: السلم والأمن والاستقرار مع الخضوع للمستعمر، أم سيرفضونه ويرضون ما فهم من تمزق وتناحر وفوضى؟

لقد ناصر الرأي الأول وتبناه شيخين جليلين وعن حسن نية، كانا يعتقدان أن المستعمر شر لا بد منه لضرورات الأمن والسلم الاجتماعي، ولعله قد تحقق بالفعل بعض ما أراد الشيخان ومن أخذ برأيهما واقتنع به. لكن، وبالرغم من مكانة الشيخين العلمية ونفوذهما السياسي، إلا أن وجهة نظرهما لقيت معارضة كبيرة تدرجت من الكلمة إلى الفعل على حد تعبير الشيخ الجليل النحوي، فقد أفتى الكثير من علماء البلد بحرمة التعامل مع الغزاة وحثوا على أداء فريضة الجهاد وشاركوا فيه.

وفي هذا المعنى ومن تلك الفتاوى الشهيرة التي تتحفظ بها الذاكرة الفقهية الشنقيطية²⁷: فتوى سيدي محمد (الصغير) ابن حبت الذي ألف رسالة في حكم من غلب على وطنه النصراري، وفتوى سيد المختار بن محمد عينين بن أحمد الهادي الذي كتب رسالة أخرى بعنوان إرشاد الضال إلى وجوب جهاد كبولان وحرمة مساكنته الموجبة للفسق والعصيان، وأفتى محمد الأمين بن أحمد زيدان 1905 بأن حكم المسلمين وقد احتلت بلادهم قصر الصلاة. أما محمد حبيب الله فقد ألف مزيل الحرج في رد ما عند من أسقط الهجرة من حرج، أفتى فيه بوجوب الهجرة ونظم قصيدة يختار فيها الوضع القائم على ما يعد به الفرنسيون من عدل واستقرار، فقال:

والجور والإسلام في بلادنا ** خير من العدل مع الكفر الجل

مصلحة الدين على الدنيا يرى ** تقديمها حتما مراعي الأفضل.

وقد كان ممن هاجر سيدي المختار بن سيدي محمد بن سيدي بن الشيخ القاضي: كما هاجر أبناء ما يابى، وسيدي محمد ابن حبت الذي انضم إلى الشيخ ماء العينين والمجاهدين الذين التأموا حوله، كما هاجر أيضا إبان الاحتلال محمد عبد الله بن أحمدنيّه والتحق بصوف المقاومة ولم يعد إلى بلده إلا سنة 1910.

فلقد جمع رجال المحاضر بين المقاومة الثقافية، والمقاومة السياسية: حتى أنهم اهتموا إلى أساليب من النضال السري، فلعلمهم لم يسبقوا إلي تعليق المنشور السياسي في البلاد.. حدث ذلك في الخمسينيات عندما زارت بعثة استعمارية مدينة أبي تليميت لأداء مهمة، فأصبحت قصيدة معلقة على المسجد بدون توقيع، ففشلت مهمة البعثة بعدما قرأ الناس القصيدة، وقد جاء مطلعها:

فلا أكرم الرحمن ذا الوعد من وقد ** لقد جاء للإسلام بالحادث الإد

غدا سائرا في الأرض شرقا ومغربا ** ليطفئ نور الله فسقا على عهد

ويهدم من دين الإله قواعدا ** ليصبح بنيان القيادة ذا هدي

يرد كلام الله بالإفك جرأة ** فلا نال من حوض الرسول سوى الرد

وينفى حدود الله في الشرع جملة ** فلا كف عنه الجد من كل ذي حد.. الخ

²⁶ الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة.. والرباط، م.س.ص.364.

²⁷ الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة.. والرباط، م.س.، ص.332.

إن الحديث عن هذا النمط والمظهر من مظاهر المقاومة الثقافية يحيلنا إلى الحديث عن تراث أدبي ضخم تحتفظ الذاكرة الجهادية الموريتانية، خصوصا وأن بلاد شنقيط قد عرفت ببلاد المليون شاعر. فمن النماذج الخالدة في هذا السياق قصيدة محمد العقاب ابن ماياي: يا معشر الإسلام لا تسلموا؛ وقصيدة بابا بن أحمد بيبه خطب جليل، وقصيدة اجود بن اكتوشني أيها المسلمون شدوا علمهم؛ وقصيدة سيدي محمد بن الشيخ سيديا حماة الدين، وقصيدة الفغ بن أحمد العلوي، من لي بهم؟؛ وقصيدة محنض باب بن عبيد حرض على نصب الإمام؛ وقصيدة الشيخ محمد المامي بن البخاري أثيروا الغرب؛ وقصيدة الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا لا حر يرضى ما رضيتم؛ وقصيدة باب بن أحمد بيبه أجزية بعد إسلام؛ وقصيدة محمد بن الطلبة ألا يا أنصار الإله.

ولئن كان المقام ليس مقام توسع، واستعراض²⁸ لكل ما قيل في هذا السياق، فسوف سنكتفي هنا باستعراض مقطوعة من قصيدة سيدي محمد بن سيديا، والتي اشتهرت بمطلع بيت: حماة الدين، وسميت به وقد قال في مطلعها:

رُؤَيْدَكَ إِنِّي سَمَّيْتُ دَارًا ** عَلَى أُمَّتِلَهَا تَقِفُ الْمَهَارَى
تَأْمَلُ صَاحَ هَاتِيكَ الرَّوَّابِيَّ ** فَذَاكَ التَّلُّ أَحْسِبُهُ أَنَارًا
وَتَانِ الرَّمْلَتَانِ هُمَا ذَوَاتَا ** عَلَيَّانِي وَذَا حَطُّ الشُّقَارَا
وَإِنْ تُنَجِدُ رَأَيْتَ بِلَا مِثَالٍ ** جَمَاهِيرَ الْكِنَاوِينَ الْكِبَارَا
هُنَالِكَ لَا تَدْعُ مِنْهُنَّ رَسْمًا ** بَدَا إِلَّا مَرَزَتْ بِهِ مِرَارَا
وَلَا تَقْبَلُ لِعَيْنِي فِي رُبَاهَا ** تَصُونُ دُمُوعَهَا إِلَّا انْهَمَارَا
وَدُرُّ بَيْنَ الْمِيَامِينَ الْعَوَالِي ** فَإِنَّ عَلَى مَعَاهِدِهَا الْمُدَارَا
إِذَا كُنْتَ الْوَفِيِّ فَعَلْتَ هَذَا ** فَرَاعَيْتَ الدِّمَامَةَ وَالْجَوَارَا
وَالْأَخْلِيَّ وَخَلَكَ دَمٌ ** فَإِنَّ لَدَيَّ أَحْدَاقًا غِرَارَا

إلى أن يقول:

حُمَاةَ الدِّينِ إِنَّ الدِّينَ صَارَا ** أَسِيرًا لِلصُّوَصِ وَلِلنَّصَارَى
فَإِنْ بَادَرْتُمُوهُ تُدَارِكُوهُ ** وَالْأَلَا يَسْبِقُ السَّيْفُ الْبِدَارَا
بِأَنْ تَسْتَنْصِرُوا مَوْلَى نَصِيرًا ** لِمَنْ وَالَى وَمَنْ طَلَبَ انْتِصَارَا
مُجِيبًا دَعْوَةَ الدَّاعِي مُجِيرًا ** مِنَ الْأَسْوَاءِ كُلِّ مَنْ اسْتَجَارَا
وَأَنْ تَسْتَنْفِرُوا جَمْعًا لَهَا مَا ** تَغْصُ بِهِ السَّبَّاسِبُ وَالصَّحَارَى

خاتمة لقد استطاعت المحاضر الموريتانية أن تظل قلاعاً معرفية صامدة وحصوناً ثقافية منيعة عصبية على الاختراق، ولم يستطع المدّ الثقافي والعسكري الفرنسي رغم كل المكائد والمؤامرات ووسائل الترغيب والترهيب التي استعملها أن يفت في عضدها أو يضعفها؛ ورغم محاولات المستعمر الدائبة لم يكن أمام أحد الحكام الذين حكموا موريتانيا إلا أن يعترف بالهزيمة قائلاً: "إن المحاضر تمكنت على العموم من الصمود في وجه الغزو الثقافي الأجنبي واضطلعت برسالتها المتمثلة في صيانة تراث ثقافي يمثل بالنسبة لها مدعاة فخر واعتزاز".

وقد حاول المستعمر الفرنسي اللعب على وتر الإنثنية وأن ينشئ مدارس نظامية موازية كقنوات لغرس ثقافته وتوصيلها ورغّب في تقبلها ورهّب، وأخضع شيوخ المحاضر للمراقبة وقام بوضع القيود على تحركاتهم، بل ووصل به حقه في بعض الأحيان أن اجتاح المحاضرة وغزاها كما فعل مع محطرة الكحلة "الشهيرة"؛ إلا أن ذلك لم يزد المحاضر إلا تمسكا بموروثها الثقافي واعتزازا به ومرابطة على ثغوره: فردت بازدرء الثقافة الفرنسية والتهرب من المدارس النظامية: حتى وصل الأمر بأهلها إلى إنكار الولادات

²⁸ أحمد بن الأمين الشنقيطي (تحقيق فؤاد سيد): الوسيط في تراجم أدباء شنقيط - (مصر 1989 مطبعة المدني، ط4) ص 246-247.

وإخفاء الأبناء كما فعل بنو إسرائيل في عهد فرعون سنة مولد موسى عليه السلام؛ فقد كان أولئك يخافون عليهم الاعتقال، وهؤلاء يخافون عليهم الاستلاب والقتل الثقافي-الروحي. وإن الردود بطبيعة الحال لم يتوقف عند ذلك الحد كما رأيناها مبسوسة في العرض: بل قد استصدرت الفتاوى واستندت الأشعار وعلقت الشعارات السياسية (قصائد بدون توقيع) وحمل السلاح حتى زالت أخطار التهديد بإعلان الاستقلال يوم 1960/11/28.

المصادر والمراجع

- أحمد بن الأمين الشنقيطي (تحقيق فؤاد سيد): *الوسيط في تراجم أدباء شنقيط* (مصر: مطبعة المدني، ط4، 1989).
- الخليل النحوي: *برنامج المشاء - موريتانيا شجرة المحاضرة*: الشابكة www.youtube.com ، تاريخ الزيارة 2018/04/02.
- الخليل النحوي، الشيخ: *بلاد شنقيط المنارة.. والرباط . عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة* /المحاضر (تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1987).
- عبد الله بن بيه، العلامة: "ماذا يميز المحاضرة الموريتانية؟": الشابكة www.youtube.com ، تاريخ الزيارة 2018/04/02.
- محمد الأمين ولد سيدي باب: *مظاهر المشاركة السياسية في موريتانيا* (بيروت 2015 مركز دراسات الوحدة العربية، ط1).
- محمد الحسن الددو، العلامة: "صناعة الفقيه في المحاضر الموريتانية"، *برنامج فقه العصر*، الشابكة: www.youtube.com ، تاريخ الزيارة 2018/04/02.
- محمد أمين محمدو: *المحاضر الموريتانية مؤسسات لنقل المعارف: الجزاء: 2016 منشورات البحث في الإنترنت وولوجيا الاجتماعية والثقافية*.
- محمد سالم ابن عبد الودود، العلامة: *المحاضر الموريتانية قلاع العلم والتعلم: قناة الموريتانية: الرابط على الشابكة: www.youtube.com* ، تاريخ الزيارة 2018/04/02.
- محمد سعيد بن أحمدو: *موريتانيا بين الانتماء العربي والتوجه الإفريقي "دراسة في إشكالية الهوية السياسية 1960-1993"* (بيروت: إصدارات مركز دراسات الوحدة العربية، ب.ت.).
- المختار ابن حامدون: *حياة موريتانيا. الحياة الثقافية* (ب.م.: الدار العربية للكتاب، ب.ت.).